# الفصل الثالث

# بوادر العمل الجماعي ١٨٩٩ - ١٩٠٧

obeikandl.com

نشأت الطبقة العاملة المصرية ـ كما رأينا ـ فى كنف المرافق « والمصانع الكبيرة » ووحدات الصيانة التى ظهرت فى المجتمع المصرى خلال الحقبة الاخيرة من القرن ١٩ والسنوات المبكرة من القرن العشرين ٠

وقد اتسمت احوال العمل فى هذه المنشآت ـ على اختلافها ـ بأجورها المنخفضة وساعات العمل الطويلة ٠ وعلى الرغم من ندرة المعلومات المتاحة للباحثين فى هذا الشأن فان القليل من البيانات التى وصلت الينا تشير ـ على سبيل المثال ـ الى ان الاجر اليومى للعامل غير الفنى لم يكن يتعدى ٣ قروش ، واجر الحدث فى محالج الاقطان كان قرشا واحدا أو قرشا ونصف واجر العامل الفنى ٨ قروش ٠ أما الأجور المدفوعة بالشهرية ـ فى بعض الحالات ـ فكانت ـ على سبيل المثال ٢٨٠ قرشا لعامل الترام ( ١٩٠٨ ) ، ٥٠٠ قرش لسائق القطار بالسكك الحديدية ( ١٩١١ ) ٠

وكان متوسط ساعات العمل اليومية ١٣ ساعة فى الغالبية العظمى من المرافق وخاصة مرافق النقل ، وهناك ما يؤكد ان ساعات العمل فى محالج الأقطان كانت تقارب ١٧ ساعة يوميا ٠ وقد ظل مطلب العشر ساعات مطلبا عاما للعمال طوال هذه الفترة وان لم تظفر به غير فئات محدودة من عمال المرافق ٠ وقد لخصت جريدة اللواء ( ٣١ اغسطس ١٩٠٢ ) وصفها لشروط العمل السائدة خلال هذه الفترة فقالت :

**« انا نرى أن حالة العمال فى مصر اصبحت أمرا لايحسن السكوت عليه تلقاء استبداد ارباب العمال الذين ليس عندهم أدنى شفقة ولا رأفة ، اذ فضلا عن صعوبة الاعمال وكثرة ساعات العمل فان الاجور زهيدة جدا بالنظر فى حـــالة الغلاء الحاضرة فى المأكل والمشرب والمسكن والملبس التى يشكو منها ليس فقط الفقراء والمتوسطون بل وبعض الاغنياء » ٠**

كما اتسمت احوال العمل بالتفاوت الكبير فى الاجـور بين العمال الوطنيين والعمال الاجانب ، فضلا عن استئثـــار هؤلاء بالاعمال والوظائف الاشرافية ، وعـــدم اتاحة الفرص للعمال المصريين لتولى هذه الاعمال حتى ولو كانوا متساوين معهم فى الخبرة والانتاج ٠ وقد لعبت هذه الظـاهرة بالذات دورا هاما فى تاريخ الطبقة العاملة المصرية والعمـــل النقابى وخاصة منذ عام ١٩٠٧ ٠

وضاعف من صعوبات العمل طوال هذه الفترة ، خلو التشريعات من قوانين للعمل تكفل تنظيم العلاقات وحمـاية العاملين ، وتضمن لهم الحقوق الاساسية مثل مكافأة نهـــاية الخدمة والتعويض عن اصابة العمل ٠

ان هذه الصورة القاتمة لأحوال العمل وشروطه كانت فى واقع الامر المحرك الاساسى للطبقة العاملة النـــاشئة ، والدافع لها على الحركة الجماعية من أجل تحســين شروط عملها وخاصة من خلال المطالبة برفع الاجور وخفض ســاعات العمل ٠

ومن الجلى ان محاولة البحث عن اصول العمل الجماعى للطبقة العاملة المصرية من شأنه أن يجرنا الى مجال الافتراض الذى قد تعجز الوقائع المتاحة لنا عن اثباته ، ذلك فضلا عن الغموض الذى يغلف دائما كل البدايات التاريخية لنشوء الظواهر الاجتماعية · وليس ثمة واقعة معينة يمكن ان نعتبرها بداية للعمل الجماعي للطبقة العاملة المصرية الناشئة فى هذه الفترة غير اضراب لفافى السجاير فى القاهرة عام ١٨٩٩· ومهما اختلفت الآراء حول هذا الاضراب ومدى أهميته أو مغزاه فى تاريخ الحركة النقابية المصرية ، فمن الثابت أنه كان من تنظيم العمال الاجانب وان العمال المصريين اشتركوا فيه بصورة جانبية وبالقدر الذى أدى فيه الى التوقف الحتمى للعمل · وقد وقع هذا الاضراب ـ أو الاعتصاب بلغة العصر ـ فى عدد من « معامل السجاير » بالقاهرة خلال شهر ديسمبر عام ١٨٩٩ واستمر الى ٢١ فبراير ١٩٠٠ اى أنه دام أكثر من شهرين · ولما كانت خطة المضربين هى اطالة أمد الاضراب الى أن تستنفد السجاير من مخازن التجار فيضطر اصحاب المعامل الى المفاوضة واجابة مطالبهم ، فقد عنى قادة الاضراب بمنع استخدام لفافين جدد ، محل المعتصبين · وكان اصحاب المعامل يعمدون الى ذلك فيتصدى لهم العمال الاجانب والوطنيون ويعتدون عليهم ، وقد حفظت لنا جريدة المقطم ( ٦ فبراير ١٩٠٠ ) صورة تاريخية لهذه الاحداث ، جاء فيها :

**« ان محل فافيادس فى شارع دبانه استأجر خمسة عشر لفيفا وطنيا من بولاق ليلفوا سجائره**

**فعلم رفاقهم المعتصبون بهم فاجتمعوا امس العصر أمام المحل المذكور وعددهم يفوق ٣٠٠ عامل وطلبوا اخراج اللفافين من المحل ومنعهم عن العمل الى أن يحل اشكالهم .... اما حجة التجمهر فهى أنه مر عليهم شهر ونصف وهم بلا عمـــل وانهم يودون مداومة ذلك حتى ينالوا بغيتهم من أصحاب محلات السجاير ، فاذا عمل بعض منهم ذهبت اتعابهـــم سدى ، فلذلك يرون تمكين ربط الاتحـــاد الى ان يضطر التجار الى الاذعان لما يطلبون ، ويقولون أن أكثر السجاير قد بيع ولم يبق فى المحلات الامقادير يسيرة ، وان الطلبات كثيرة من الخارج فاذا بقـــوا على اتحادهم فازوا بأمنيتهم » .**

ويؤكد كاتب معاصر * حقيقة هذا الاضراب من حيث دور العمال الاجانب في تنظيمه وقيادته فيقول :

**« ان هذه البلاد لم تخل من بضع مظـــاهرات للعمال ليست بذات بال نذكر منها مخالفة جرت فى أواخر سنة ١٨٩٩ بين لفافى السجاير فى القاهرة التماسا لاصلاح بعض شئونهم وخصوصـــا لزيادة أجورهم .فأصر اصحاب المعامل على رفض طلباتهم، ولهذا استمر الاضراب مدة غير قصيرة وفى خـــلال هذه المدة اتخذت الشرطة الوســـــائل لمنع تجمهر**

---

* يوسف نحاس : «الفلاح : حالته الاقتصادية والاجتماعية ص ٤٧» ( ظهر بالفرنسية عام ١٩٠١ وبالعربية عام ١٩٢٦ ) .

**المضربين ولحماية الذين يريدون ان يعملوا ولما كان السواد الاعظم من المضربين اجانب ، طلبت مساعدة قناصلهم للتفادى من مصاعب قد يجىء بها المستقبل فما لبث ان استؤنف الشغل ولم يحل الصناع بطائل .... بيد ان الذى يجدر بالذكر فى امر هذا الاضراب أنه كان أول اضراب جدى فى مصر . ويلاحظ ان الذين قاموا به اجانب وان الوطنيين لم يبدوا رغبة فى مثل هذا التكافل » .**

ولكن .... لماذا اضطر العمال الاجانب فى مصر الى استخدام سلاح الاضراب ؟ اننا نعرف ان الآلاف منهم قد نزحوا الى مصر يحدوهم الامل العريض فى العمل المجزى وفى ظل حماية سياسية قوية وتمييز اجتماعى سافر بالنسبة لابناء البلد ، فماذا حدث لهم حتى اضطروا للالتجاء الى سلاح الاضراب ضد مواطنيهم من اصحاب الاعمال الاجانب ؟

الواقع اننا اذا استثنينا هذا الفريق المحدود من ابناء الجاليات الاجنبية فى مصر ممن كانوا يملكون رؤوس الاموال المستثمرة فى المرافق والتجارة والارض ، او ممن كانوا يمارسون الاعمال الحرة والوظائف الممتازة نجد أن الغالبية العظمى من الاجانب كانت مؤلفة من فقراء الاوروبيين والارمن والشوام المسيحيين من العمال الفنيين الذين طحنتهم البطالة فى بلادهم فأغرتهم الهجرة الى الشرق لعجزهم عن الهجرة الى امريكا ، حيث ينشدون العمل والحياة والاستقرار والحقيقة الهامة التى واجهوها فى مصر هى ان ظروف العمل وان وضعتهم فى مكانة ممتازة بالنسبة للعمال الوطنيين فانها

كانت تسلبهم الكثير من المكاسب التى حققتها الطبقة العاملة فى أوربا وما ظفرت به من الحماية النقابية والتشريعات الاجتماعية • وكان من الطبيعى ان يلجأوا الى استخدام أساليب العمل الجماعى والنقابى لتحسين شروط عملهم فى مصر ، مستفيدين بما تراكم لديهم من خبرات العمل النقابى فى بلادهم •

وهكذا لم يكن غريبا ان تزخر السنوات المبكرة من القرن العشرين فى القاهره والاسكندريه بسلسلة من الاضرابات التى نظمها العمال الاجانب وقادوها ، وكان حتميا ان يشاركهم العمال المصريون فى هذه الاضرابات بقدر محدود احيانا او بنصيب كبير احيانا اخرى • ومن هذه الاضرابات : اضراب العمال الايطاليين العاملين فى خزان أسوان فى مارس ١٨٩٩ للمطالبة بخفض ساعات العمل ، واضراب لفافى السجاير الاجانب والوطنيين بالقاهرة ، وهو الاضراب الذى يؤرخ به بدء الحركة النقابية المصرية ( عام ١٨٩٩ ) وقد امتد من ديسمبر ١٨٩٩ الى ٢١ فبراير ١٩٠٠ ، واضراب العمال المصريين المشتغلين بشحن وتفريغ الفحم فى ميناء البصل بالاسكندرية فى سبتمبر ١٩٠٠ من اجل زيادة اجورهم الى عشرة قروش يوميا ـ وخفض ساعات العمل الى ١٢ ساعة من ضمنها ساعتين للراحة • وقد حقق الاضراب اهدافه دون وقوع حوادث ، ثم اضراب العمال المصريين فى شركة ترام الاسكندرية فى نوفمبر ١٩٠٠ مطالبين بفتح باب الترقية لهم الى درجة مفتش اسوة بالعمال الاجانب ، والحد من سلطة المفتشين وتنظيم خصم الغرامات وخفض ساعات العمل التى

تبلغ ١٣ ساعة . ويبدو ان هذا « الاعتصاب » قد وقـــع بعد سلسلة طويلة من الاجراءات والصعوبات وسوء المعاملة التى خلقتها الشركة وكبار موظفيها الاجانب للعمـــال المصريين . وكان آخر هذه الاجراءات ما قررته الشركة من الزام هـــؤلاء العمال بدفع اجـــرة الركوب بالترام ماداموا فى غير اوقات العمل . والظاهر ان هذا القرار كان القشة التى قصمت ظهر البعير » وقطعت شجرة اصطبار العمال « كما قالت » الاهرام ( الخميس ٢٩ نوفمبر ١٩٠٠ ) .

وقد قام العمال بتحديد مطالبهم وشكواهم من الشركة وقدموها فى صورة عريضة الى محافظ الاســـكندرية والى مندوبى الصحف ، وهى تجرى ـ بلغة العصر ـ على النحـــو التالى :

١ ـ ان الشركة تستخدم العمال الوطنيين لخدمة كبيرة فيها ، فلا تجعلهم مفتشين قط وانما تستخدمهم ســـاقة وكومسيرية فقط .

٢ ـ ان الشركة تجعل للمفتشين سلطة عظيمـــة على السائقين والكومسيرية ، فكأن المفتش حاكم بأمره يصـــنع ما يشاء ويستبد بالعمال كما يريد وهو بحق أو غير حق يكتب للعمال مخالفة عشرين قرشا او ثلاثين أو خمسين .

وقد يقطع من راتب الواحد مائة قرش فى الشهر مع أن راتبه لايتجـاوز المائتين والعشرين قرشـــا . وفى كثير من الاحيان يكون المفتش غير محق فى معاملته للعمال هذه المعاملة بل يكون ما رآه ذنبا لهم هو خطأ أو وهم منه فتوافق الادارة

على اقواله من غير بحث ولا تحقيق وهكذا يؤخذ العمـــــال بالجريرة التى توهمها المفتش وهم أبرياء منها ٠

٣ ـ يطلبون تعيين المسيو ريشار وكيلا بدلا من سواه ٠

٤ ـ ان المبالغ التى تستقطع من العمال فى كل شـهر على سبيل الغرامات لاتدخل الى صندوق الشركة ولكنها تنصرف الى جيوب بعض المستخدمين ٠

٥ ـ ان كثيرين منهم يوضعون احيـــانا تحت الطلب للخدمة مخافة ان ينقص عدد العمال الذين فى نوبتهم ثم بعد ذلك لايعطون اجرة اليوم الذى انتظروا فيه ، وما عدا ذلك ، فانهم يطلبون أن يكون راتبهم شهريا لايوميا ٠

٦ ـ ان ساعات العمل كثيرة فانهم يشتغلون ١٣ ساعة ولذلك يطلبون أن تكون ٦ ساعات فقط ٠

ويعلق مندوب جريدة الاهرام على المطلب الاخير فيقول: « مادرى هؤلاء البسطاء الذين يطلبون النهار ذا الست ساعات أن زملاءهم العملة فى كل اوربا يطلبون الان النهار ذا الثمانى ساعات ولا ينالونه » ٠

٧ ـ سوء المعاملة والاهانة التى يشكون منها ٠

ومن المحقق ان هذا الاضراب قد منى بالفشل ، وفصل قادته من العمل ، ففى ٨ ديسمبر ١٩٠٠ تشير جريدة الاهرام الى أن العمال عادوا الى عملهم بعد أن تلقوا وعدا من المحافظة بالتدخل لتسوية مطالبهم ، وانتهزت الشركة الفرصة ففصلت

قياداتهم ثم استعانت بالبوليس لمنعهـــم من الاقتراب من « أماكن الشغل » ٠

وفى ديسمبر ١٩٠٠ ـ ايضا ـ عاد العمال الايطاليـون بخزان اسوان الى الاضراب مطـــالبين بوقف قرار الشركة « تخفيض الاجر من ٢٠ الى ١٥ قرشا ومحتجين على ســـوء المعاملة » ٠

وأضرب عمال الترزية الاجـــانب والمصريين ( نوفمبر ١٩٠١ ) مطالبين بتنظيم أجور القطعة وخفض ساعات العمل واعتبار يوم الاحد اجازة اسبوعية بعد الظهر وتحـــديد وقت للراحة والغداء ٠

وزخرت سنة ١٩٠٢ بعديد من الاضرابات ـ حتى فى صفوف الحرف القديمة ـ مثل الحلاقين وصفوف العمـــال الذهنيين مثل كتبة المحامين ٠

وقد اعتصب صبية الحلاقين ( يناير ١٩٠٢ ) وطـافوا شوارع القاهرة مطالبين بزيادة اجورهم واعتبـــار بعد ظهر الاحد اجازة اسبوعية ٠ وقد حـــاولوا التهجـــم على بعض صالونات الحلاقة واغلاقها بالقوة ٠

أما كتبة المحامين فقد الفوا « جمعيـــة » لهم طالبت تحديد نصيب اعضائها من ارباح المحامين على النحو التالى

المحامين من المرتبة الاولى ١٠٪ من ارباحهم

المحامين من المرتبة الثانية ٥٪ من أرباحهم

المحامين من المرتبة الثالثة ٥ر٢٪ من أرباحهم

وأضرب العمال المصريون والاجـــانب فى شركة الغزل الاهلية بالاسكندرية ( ٢٢ يناير ١٩٠٢ ) مطالبين بتعديل نظام الأجور التى تحتسب بالقطعة وقد رفض وكيل الشركة ـ المدعو مسيو لمروزو ـ اجابة مطلبهم وطلب تدخل البـــوليس لفض الاعتصاب ٠

وقد عاد العمال الى العمل فى اليوم التالى بعد ان قررت الشركة فصل عدد من قادة الاضراب « وهم خليط من الوطنيين واليونانيين » كما استعانت الشركة بعمال جـــدد من المحلة الكبرى بلغ عددهم ثمانين عاملا ٠

وأضرب عمال مطبعة الكوريرى اجيسانو « بالاسكندرية ( مارس ١٩٠٢ ) مطالبين برفع اجورهم ٠ ومن الطريف ان صاحب هذه الجريدة لجأ الى جريدة « الاجيبشيان جازيت » وطلب منها تنظيم حملة صحفية ضد « جمعية عمال المطابع »، ولكن صفافى الحروف بهذه الجريدة امتنعوا عن صف ماكتب فى هذا الصدد تضامنا مع زملائهم عمال مطبعـــة الكوريرى اجيسيانو ٠

وفى نفس الوقت (مارس ١٩٠٢) أضرب لفافو السجاير الاجانب والمصريون بالاسكندرية ( معامل الخواجة سملوم ) مطالبين بزيادة الاجور والاحتجاج على عسف رئيس العمل ، واستعان صاحب العمل بالبوليس لحماية العمال الذين رفضوا الاشتراك فى الاضراب ٠ وهناك ما يشير الى أن هذا الاضراب ظل مستمرا اكثر من اسبوع ، فقد اجتمع العمال المضربون فى « تياترو عدن » برئاسة الدكتور يودينـــوس ـ رئيس

جمعية عمال السجاير الذى اخذ يحضهم على مواصلة الاعتصاب ووعدهم بجمع مساعدات مالية لهم من اخوانهم فى المهنة ومما يتلقاه « صندوق الجمعية » من تبرعات ٠

واتفاقا مع التقاليد السائدة ، قدم العمال اليونانيون من بين المضربين شكوى الى « قنصلاتو اليونان » كشفت عن مطالب اخرى لهم مثل المطالبة بوقف ما يخصم منهم ( نصف فرنك شهريا ) للمستشفى اليونانى ، والمطالبة بوقف مايكلفون به من اعمال خارج طبيعة عملهم ٠

ويعتبر اضراب عمال السجاير بالقاهرة الذى بدأ فى نهاية ديسمبر ١٩٠٣ واستمر نحو شهرين او اكثر بقليل ، من أبرز مظاهر نمو العمل الجماعى فى هذه المرحلة المبكرة من حياة الطبقة العاملة ، نظرا لطول أمده ولما حدث خلاله من مضاعفات وعنف ، فضلا عن اتساع رقعته حتى ليمكننا أن نعتبره أول **اضراب عام** لعمال هذه الصناعة فى القاهرة ٠

ومن المؤسف أن الانباء التى امكننا تجميعها عن هذا الاضراب لم تكن كافية لمعرفة المطالب التى تقدم بها العمال والتى أدى رفضها من جانب اصحاب الاعمال الى اعلان الاضراب ٠ ولكننا نعرف على وجه الخصوص ان اصحاب معامل السجاير ـ وعددها ستة معامل تستخدم ١٢٠٠ عامل ـ حاولوا فرض تخفيض جماعى على اجور عمالهم ، فرد هؤلاء بمطالب مضادة لرفع الاجور وعزل « كومندات » ( رؤساء ) العمال الذين يتعسفون فى معاملتهم ويفرضون عليهم الاتاوات ٠

وباعلان الاضراب ، دخل الصراع فيما يمكن ان نسميه مرحلة امتحان الصبر وطول المقاومة • فتمسك العمـــال بتضامنهم اذ ان نجاحهم فى منع استخدام عمال غيرهم ، كفيل بوقف الانتاج تماما ، وبالتالى فان المخزون من السجاير لدى التجار سينفذ خلال شهرين حسب التقدير ومن ثم يضطرون لقبول شروط العمال • ومن ناحية أخرى فان اصحاب المعامل والتجار سيبذلون كل جهد لضمان استمرار الانتاج ـ ولـو جزئيا ـ وخاصة من خلال استخدام عمال جدد أو كسب ولاء فئة أو أخرى من العمال المضربين وتأليبهم على زملائهم •

وقد شهدت الشهور الطويلة التى اســتمر الاضراب اثناءها ـ من اجانبين كافه اشكال المقاومه والضغط المتبادل• ويبدو ان العمال قد نجحوا فى الحصول على مساعدت كافية من « المحسنين » مكنتهم من مد عمر الاضراب • وحاول اصحاب المعامل استخدام عمال جدد تحت حراسة البوليس ، ولـــكن العمال المضربين كانوا يتصدون لهم ويقاتلونهم بمـــرارة بل ويطلقون عليهم الرصاص وهـــم فى العربات التى تنقلهم الى المعامل • والظاهر ان اصحاب المعامل وخاصة معمل جانكليس ـ نجح فى بث الفرقة بين فئات العمال واوقع بين العمـــال الوطنيين والسوريين من ناحية وبين العمال اليونانيين الذين داوموا على الاضراب •

وقدرت خسائر اصحاب المعـــامل من جراء الاضراب فئة أو أخرى من العمال المضربين وتأليبهم على زملائهم •

وفى النهاية تضافرت قوى اصحاب المعامل والبوليس على تصفية الاضراب وعاونت القنصلية اليونانية على نفى قادته

خارج البلاد ، وخسر العمال الاضراب بصورة مفجعة ٠

ولا شك ان هذه الاضرابات ( التى أوردنا ذكرها لا على سبيل الحصر ، وانما كحصيلة لما جمعناه من بيانات محدودة وعسيرة ) كانت حدثا هاما فى حياة الطبقة العاملة المصرية ، اذ قدمت لابناء هذه الطبقة أسلوبا جديدا للعمل فى مواجهة اصحاب الاعمال من اجل تحسين شروط عملهم ٠ كما اتاحت الفرصة للعمال المصريين لاول مرة اما لمراقبة هذا الاسلوب عن بعد او المشاركة فيه والاطلاع على طرائق استخدامه ، وفاعليته ٠ ولا شك انهم شعروا ـ من خلال هذه التجارب ـ بوحدة مصالحهم وارتباط مصيرهم وامكان وقوفهم يدا واحدة فى مواجهة اصحاب الاعمال ٠

لقد ارست هذه الاضرابات المبكرة أسس العمل الجماعى فى حياة الطبقة العاملة المصرية ، وهو العمل الذى كتب له أن ينمو وتتطور اشكاله مع مرور الزمن ، والذى اسفر فى النهاية عن شحذ الوعى الطبقى وابراز التناقض بين العمل ورأس المال ، وخلق الحاجة الى تنظيم دائم للدفاع عن مصالح العمال ٠

وكما كان الاضراب حدثا جديدا وهاما فى حياة العمال المصريين ، فانه كان مفاجأة للرأى العام وللصحافة والحكام ٠ وقد اتفقوا جميعا على اعتباره « بدعة اوروبية » انتقلت الى البلاد ٠ فجريدة اللواء مثلا ( ١٩٠٠ ) ترى أن اعتصاب لفافى السجاير « يظهر غريبا فى الشرق » ثم تقول « ولكن الفاقة تعلم الشرقيين ما تعلمه الغربيون أما جريدة « الجريدة»

( ١٩٠٢ ) فقد اعتبرته « داء » جديدا جلبه الغرب الى الشرق ... واختار مصر منبتا خصبا لجرائمه تنمو فى تربتها الطيبة وتنتشر فى هوائها المعتدل ... ذلك الداء هو اعتصاب العمال على الاضراب عن الاعمال ، فانه مبدأ الفوضى وأول مراتبها » . واتهمت جريدة الاهرام ( ١٩٠٢ ) العمال المصريين بأنهم يقلدون العمال الاوروبيين تقليد القردة « ولكنه تقليد فاسد ومضر بهم » .

ونحن لا يمكننا ان نسلم بهذا التفسير الساذج لظهور اسلوب الاضراب فى صفوف العمال المصريين . فالظواهر الاجتماعية لاتنتقل من بلد الى آخر كما ينتقل الافراد او السلع ، وانما تنشأ فى المجتمع كلما توافرت الظروف الموضوعية لظهورها . فنمو علاقات العمل الحديثة فى مصر فى هذه الفترة نتيجة لانفصال العمل عن رأس المال وتجمع اعداد كبيرة نسبيا من العمال فى مكان واحد للعمل مثل معمل السجاير أو مصنع الغزل أو مرفق الترام ، قد وفر الظروف الموضوعية لظهور العمل الجماعى فى صفوف العمال . ولكننا فى الوقت ذاته ـ لانتكر ان وجود جماعات من العمال الاوروبيين ممن توافرت لديهم الخبرة المباشرة أو المعرفة ، بأسلوب الاضراب والتنظيم النقابى فى بلادهم ، قد أسهم فى التعجيل بنشوء العمل الجماعى لدى العمال المصريين وتطويره . ولعل كاتب جريدة اللواء قد لمس هذه الحقيقة دون قصد منه ـ حين قال : « ان الفاقة تعلم الشرقيين ما تعلمه الغربيون » .

## ظهور النقابات :

لم يكن الاضراب هو الشكل الوحيد للعمل الجماعى. فقد ارتبط بشكل آخر من اشكال العمل الجماعى لا يقل عنه اهمية وهو التنظيم النقابى . فمن خلال هذه الاضرابات ظهرت الحاجة الى ايجاد اداة او **تنظيم دائم** يواصل صيانة المكاسب التى حققها الاضراب أو يواصل تجديد العمل من اجل تحقيق ما لم يتيسر تحقيقه من المطالب . فالاضرابات فى بداية الامر ـ كانت تديرها جماعة نشيطة أو لجنة موقتة لا تلبث ان تختفى فى أعقاب الاضراب . ولكن بمرور الزمن ـ وتراكم الخبرة ـ تطلبت الحاجة المتولدة خلال الاضراب استمرار هذه الجماعة النشيطة ـ وتنظيمها ـ كتشكيل دائم .

ومن الطريف ـ فى هذه الفترة المبكرة من العمل الجماعى انه لم يطلق اسم « نقابة » على هذا التنظيم . بل استخدمت فى الغالب كلمة « جمعية » وفى تقديرنا أن ذلك انما يرجع الى ان العمال الأجانب الذين تولوا قيادة هذه التنظيمات استعملوا كلمة « جمعية » باللغة الأوروبية التى تكلموها وترجمت الكلمة الى العربية على هذا النحو . وكتبت على « اعلام » هذه التنظيمات وفى مراسلاتها .

ومن ناحية اخرى فان كلمة « نقابة » فى اللغة العربية كانت تطلق على تنظيم الطوائف والصناع الحرفيين ، ولهذا فاننا نرجح أن العمال الوطنيين لم يقبلوا على

استخدامها حتى لا يختلط الامر أو تمييزا لحركتهم عن الطوائف المندثرة .

وقد أمكننا أن نحصر بعض هذه الجمعيات التى ظهرت من خلال الاضرابات المتوالية فى الفترة من ١٨٩٩ الى ١٩٠٧ . وهذه هى : جمعية لفرانى السجاير بالقاهرة ( ١٨٩٩ ) . وكانت لا تزال قائمة فى عام ١٩٠١ ويرأسها يونانى يدعى دكتور كريازى وجمعية أتحاد عمال الخياطين بالقاهرة ( ١٩٠١ ) وكان يرأسها يونانى يدعى دكتور بستس . وجمعية الحلاقين بالقاهرة ( ١٩٠١ ) وجمعية عمال المطابع ( ١٩٠١ ) وجمعية عمال الادوات المعدنية ( ١٩٠٢ ) وجمعية عمال السجاير بالاسكندرية ( ١٩٠٢ ) وكان يرأسها يونانى يدعى دكتور يودينوس ، وجمعية كتبة المحامين بالقاهرة ( ١٩٠٢ ) وجمعية عمال الدخان المختلطة ( ١٩٠٣ ) وكانت خاصة بعمال موتوسيان .

واذا كان تاريخ هذه الفترة ليس بعيدا عنا بحساب الزمن . فانه لم يحفظ لنا من انباء هذه « الجمعيات » وطريقة تنظيمها وادارتها ولوائحها واعضائها الا النذر اليسير ولعل مواصلة البحث فى المستقبل أن تكشف لنا عن مزيد من هذه الانباء والبيانات . وقد عثرنا فى جريدة المقطم ( ٥ نوفمبر ١٩٠١ ) على صورة وصفية لنشاط احدى هذه الجمعيات لعلها أن تنقل الينا طرفا من « المناخ العام » الذى كان يجرى فيه العمل الجماعى فى هذه الفترة . قالت جريدة المقطم تحت عنوان « اعتصاب صناع الخياطين » :

فى الساعة الثالثة بعد ظهر أمس تكامل عدد الخياطين

( الترزية ) الذين احتشـــدوا فى قهـــوة ألف ليلة وليله ، واجتمع معهم أيضا أعضاء جمعية لفافى الســـجاير وكثيرون من العمال فى حرف اخرى حتى ضاقت بهم القهوة وافنيتها، فنيف عددهم على ألف وخمسمائة نفس . وتصدر هـــذا الاجتماع الهائل حضره الدكتور بستس رئيس الجمعيـــة والخواجة نقولا ديانو سكرتيره واحمد افندى على ، أمين الصندوق والأعضاء المؤسسون وهذه اسماؤهم :

**ميشيل خياط**

**لورنزو لبوتادو**

**ارستيدى لوفنتو**

**نقولا قطاوى**

**فلوش شوارث**

**توماتى كودل**

**شكرى عرمان**

**يقدمين مارشكيان**

**توماتى أوتيرى**

**جاهين خشداء**

**نقولا ديان**

ولما استقر كل فى مكانه وساد النظام والهدوء وقف حضرة الدكتور كريازى رئيس جمعية لفافى السجاير وخطب فى واجبات المستخدم نحو رئيسه وواجبات الرئيس نحو مستخدمه ، وأنه يجب على الرئيس أن يقاسم مستخدمه شيئا من ربحه كما تقضى به العدالة والذمة والشرائع ـ ثم قال ان أعضاء جمعية الخياطين المؤسسين سيضعون تعريفة أجرة لكل قطعة تخاط ٠

وتكلم بعده الخواجه سليم فيفانى الطرزى ثم خطب حضرة جورجى أفندى طنوس بما يناسب المقام : وأرفض كثيرون من المحتشدين ٠

وفى الساعة السادسة جعلوا يعودون الى الاجتماع فاحتشد جمع غفير زاد عدده عن الذين كانوا فى الاجتماع الأول وخرجوا من تلك القهوة صفوفا وأمامهم الموسيقى البلدية وهم يصرخون ( زيتو أفندى مز جوق يشا ) فساروا فى شارع الموسكى مزدحمين ، فالحمزاوى فشارع محمد على فشارع عبد العزيز حتى اذا وصلوا الى سراى عابدين أكثروا من المناداة ( زيتو أفندى مزجوق يشا ) فبلغت أصواتهم عنان السماء ، ثم ساروا فى شارع عابدين وكان حضرة الخواجة ميشيل خياط يحمل **راية الجمعية وهى من الحرير الأبيض الناصع وعليها رسم مكواة ومقص وكفين متماسكين وعلى أطرافها كشكش اصفر ٠ وقد كتب عليها اسم الجمعية باللغات العربية والطليانية واليونانية والعبرية والأرمنية ٠** حتى اذا وصلوا الى ميدان الأوبرا الخديوية أكثروا من الهتاف

أيضا ثم ساروا أمام سبلندر بار فشارع وجه البركة وكان عددهم عندئذ قد قارب ثلاثة آلاف نفس » ٠

وتواصل جريدة المقطم بعد ذلك سرد أنباء الجمعيـــة وقائمة أجور القطعة التى أعدتها ، وكيف كانت القائمة تقرأ على المجتمعين « **بالايطالية واليونانية والعربية** والعبرانيـــة والنمسوية » ٠ كما نشرت الجريدة بيانا من أصحاب الاعمال يتهمون الجمعية بالاستبداد واجبار العمال على الاضراب ، ثم بيان من الجمعية يرد على أصحاب الاعمال ٠

ونحن نميل الى الاعتقاد بأن هذه الصورة النادرة للعمل الجماعى انمـــا تمثل نموذجا لما كان يجرى فى هذه الفترة وخاصة من حيث سيطرة العمال الأجانب وقيادتهم للعمـل الجماعى ، واشتراك الوطنيين معهم بقدر محدود ٠ ولا يختلف عن ذلك شكل العمل الجماعى فى صفوف عمال الســـجاير والترام والغزل الأهلية وغير ذلك من العمـــال الذين أوردنا نبأهم فى قائمة الاضرابات ٠

وقد استرعت ظاهرة « التضامن » بين العمال الأجانب والعمال الوطنيين فى هذه الفترة انتباه بعض البـــاحثين ، وتحمسوا لها ، واعتبروها مثلا لوحدة الطبقات العاملة عبر فروق الجنس واللغة واللون ، وفى تقديرنا أنه من الخطأ أن نعجل بالحكم على هذه الظاهرة قبل متابعة التطـــورات التى كشفت عنها السنوات التالية ، والتى أثبتت ارتباط العمال الاجانب بالسياسة الاستعمارية فى مصر أكثر من ارتباطهم بمفاهيم الأخوة العمالية أو وحدة الطبقة العاملة ٠

ان الباحث عن انجازات الطبقة العاملة المصرية وحركتها فى هذه الفترة سيجد حصيلة غنية منها بما يفوق بكثير هذه الظاهرة العابرة والتى لمعت فى سماء العمل الجماعى ولم تلبث أن اختفت سنوات طويلة ٠

ان حصيلة هذه المرحلة المبـــكرة ـ رغم ما يبدو من بساطة العمل الجماعى خلالها ورغم ضعف التنظيم النقابى ـ انما تكمن فى عدد من الحقائق لعل أهمها :

**أولا** : أن هذه المرحلة قد كشفت بوضـوح ـ ولأول مرة عن التناقض بين العمل ورأس المال فى المجتمع المصرى٠

**ثانيا** : ان هذه المرحلة أعلنت ـ لأول مرة أيضا ـ عن الوجود الجديد للطبقة العاملة على مسرح القوى الاجتماعية فى البلاد ٠

**ثالثا** : ان هذه المرحلة شهدت بوادر العمل الجمـاعى بشقيه : الاضراب والتنظيم الدائم وفتحت الطريق لنمو الحركة العمالية وتطورها فى المستقبل ٠

ولعل أحسن تعبير عن هذه الحقائق هو ما كتبه مواطن مصرى فى مجلة « المحيط » عام ١٩٠٦ اذ قال بلغة العصر ومفاهيمه عن الاضرابات :

**« هذا أمر كان سـكان مصر خالى الذهن منه بالمرة ، ولما ازدادت المدنية وانتشر فن الطبـاعة فى مصر وازداد الميل الى مطالعة الصحف العربية والافرنجية والبحث فى المجلات العلمية اتصـل**

**الينا من تلك الصحف ما أجراه بعض العملة فى بلاد الغرب من الاضراب عن العمل دفعة واحدة وتاليف الجمعيات وتحريض اخوانهم سواء بالقاء الخطابات أو بالتهديد أو ما شاكل ذلك من أنواع الحض ، فدبت الروح فى قاطنى وادى النيل وفعلا أقدموا على اتيان الاعتصاب ، واعتصب لفافو السجاير وعمال المحال التجارية والحوذية والحلاقون وغيره .**

**وكان لهذه الاعتصابات ضجة كبرى وصدى متواصل قامت له الحكومة المحلية وقعدت ، وظل المعتصبون ثابتين فى الرأى والمقصد يدا واحدة الى أن بلغوا مآربهم » .**

فالكاتب المعاصر الذى كتب هذه السطور ، وان كان يردد المفهوم الشائع عن مصدر الاضرابات فى مصر ، فانه يعبر بصدق عن أثرها فى البلاد **وكيف أنها أحدثت ضجة كبرى وصدى متواصل قامت له الحكومة المحلية وقعدت وكيف لا ؟ اليس ذلك بشير نمو الطبقة العاملة وحركتها ؟**